

## شجرة الغاف تظل بأساطيرها ماضي الهند وحاضرها

أول حركة لحماية البيئة في تاريخ البلاد تنطلق من قرية صغيرة

شجرة الغاف تظل ماضي وحاضر بعض الشعوب بالقدسية فدارت حولها القصص والحكايات من قديم الزمان، من ذلك من دفع رأسه ثمنا لعدم قطعها، وكانت وراء تشكيل حركات للدفاع عن البيئة، وهي إلى اليوم تمثل غذاء للإنسان وسدا لزحف الصحراء في بعض المناطق الهندية.

الحبيب الأسود  
كاتب تونسي

عليها اسم خجري، وكذلك اسم شامي، واحتلت مكانة مهمة لديهم منذ أن تم اكتشافها في صحراء ثار التي تعرف بالصحراء الهندية العظيمة.

في عام 1730، شهدت قرية صغيرة تقع على بعد 26 كم جنوب شرق جودبور في راجستان، أول وأكبر حركة لحماية البيئة في تاريخ الهند، عندما وهبت أمريتا ديفي من قرية خجرلي وبناتها الثلاث الصغيرات أسو، رانتي وبهجو، أزواجهن لحماية أشجار الغاف المقدسة من جور حاكم مروار المهراجا أبيها سينج الذي أمر بقطع تلك الأشجار لاستعمال حطتها في حرق الجير الذي كان سيخصص لبناء قصره الجديد في القرية.

احتجت أمريتا ضد رجال الملك انطلاقاً من أن المساس بشجرة الغاف محظور في عقيدة البيشنوي، فأخبرها زعيمهم بأنهم قد يتخلون عن قطع الأشجار المقدسة مقابل تمكينهم من رشوة، لكنها رفضت ذلك بقوة، وأكدت أنه لا يمكنها القبول بذلك، بل ستعتره عملاً من أعمال الخزي والإهانة لقيمها الدينية، مؤكدة أنها تفضل التخلي عن حياتها لإنقاذ أشجار الغاف، ثم رفعت صوتها بكلمات حزينة تحولت بعد ذلك إلى أغنية شهيرة "أن أحافظ على هذه الأشجار مقابل رأسي، فالأمر يستحق"، ثم دفعت برأسها إلى المنشار المحلول ولقطعت الأشجار ليتم اقتلعه من جسدها، ومثلها فعلت بناتها أسو ورانتي وبهجو دون تردد.

أهم موقف أمريتا ومشهد الرؤوس المفصولة عن الأجساد الحاضرة للأشجار، أفراد المجتمع المحلي الآخرين، فضحى ما مجموعه 363 شخصاً بارواهم خلال الأيام اللاحقة، وهم يحاولون إنقاذ الأشجار عن طريق احتضانهم إياها وتمسكهم بجذوعها، بينما قام رجال الحاكم بقطع أجسادهم بالفؤوس.

ووفق تفاصيل الحادثة، فإن المسنين هم الذين تقدموا أولاً للدفاع عن الأشجار، فضحك قائد قوات الحاكم منهم، وهم يتساقطون مخرجين في دماهم، ظناً منه أن أهاليهم هم من يدفعون بهم إلى ذلك الموقف بقصد التخلص منهم، لكنه فوجئ بعد ذلك بالكهول والشبان والغنيات، وحتى الأطفال وهم يتدافعون للارتقاء على جذور الأشجار، يفتدونها بالأرواح، وبعد حفلة الدفاع التراجيدية الدامية، غادر رجال الحاكم المكان دون إتمام مهمتهم، وأخبروا المهراجا سينج بطوار الحادثة، فدعاهم إلى التوقف عن قطع الأشجار المقدسة.

الدافع وراء تلك التضحية، هو أن طائفة البيشنو التي تعيش في ولاية راجستان، تحافظ منذ قرون على النباتات والحيوانات إلى حد التضحية بحياتها من أجل حماية البيئة.

بالنسبة لهؤلاء الأشخاص المحبين للطبيعة، تعد حماية البيئة والحياة البرية والنباتات جزءاً لا يتجزأ من تقاليدهم المقدسة، والفلسفة الأساسية لهم، هي أن جميع الكائنات الحية لها الحق في البقاء على قيد الحياة وتقاسم جميع الموارد.

في القرن الخامس عشر، كانت لدى ساناسي أحد سكان قرية بالقرب من جودبور، رؤية مقدسة وأصبح معروفاً باسم المهراجا سوامي جاميشوار، وعلى يديه كانت بداية طائفة بيشنو، عندما وضع 29 وصية دينية لاتباع عقيدته تضمنت حظراً على قتل الحيوانات، وحظر قطع الأشجار، وخاصة شجرة الغاف التي تنمو على نطاق واسع في هذه المناطق، حتى أن هندوساً أشداء يكتفون بدفن

منذ آلاف السنين تعتبر غراسة الأشجار جزءاً من التقاليد الهندية المجيدة، انطلاقاً من منظور ديني وعقائدي، ومن بين تلك الأشجار شجرة الغاف ولها أسماء أخرى متعددة، حيث يعتقد أن زراعة هذه الشجرة في المنزل تجلب بركات الآلهة، وتحمي أهل الدار من غضب إله العدالة شاني الذي يرمز إلى كوكب زحل.

وتعتقد الميثولوجيا الهندوسية أنه من بحاسب جميع الناس على ما أقدموا عليه من أعمال في الحياة الدنيا، سواء كانت خيرة أم شريرة.

ويعتقد السكان المحليون في ولاية راجستان الهندية، أن هناك من الآلهة من يقيم فوق الشجرة، وهناك قانون يقضي باعتماد أوراق شجرة الغاف في عبادة الأم دورغا، وتعني بالسنسكريتية التي لا تقهر أو التي لا يمكن الوصول إليها، وهي الآلهة العليا في الهندوسية.

**بالنسبة لسكان راجستان  
تعد حماية البيئة جزءاً  
لا يتجزأ من تقاليدهم  
المقدسة فجميع الكائنات  
الحية لها الحق في البقاء  
على قيد الحياة**

ومن الأفضل أن تغرس الشجرة في الركن الشمالي الشرقي من المنزل، حيث تتم عبادتها بانتظام عبر إضاءة مصباح زيت الخردل تحتها وتلاوة الصلوات التي تحمي أصحابها من الردة العكسية لكوكب زحل.

وفي الأساطير الهندوسية تعتبر تلك الشجرة قوية جداً، حيث تتم عبادتها بعد انتصار على الملك الخبيث لانكا من قبل الإله الهندوسي والبطل الأسطوري راما الذي تنسب إليه ملحمة "الراماياتا" إحدى أبرز ملحمتين لدى الهندوس، وهو زوج سينا، وقد استطاع إنقاذها بمساعدة الإله القرد هانومان من الشرير راون وله قصص كثيرة يقدها الهندوس وما زالت مشهورة حتى زمننا هذا في الهند.

وهناك أيضاً تقاليد عبادة شجرة الخجري بعد طقوس حرق الشيطان رافاشا على يد البطل دوسيهيرا في آخر مهرجان السنوي الذي ينتظم لمدة تسعة أيام في النصف الأول من شهر أكتوبر احتفالاً بالآلهة نافاراتري.

وتروي الأساطير الهندية أن جماعة الباندا فاس خبات أسلحتها بين أعضان تلك الشجرة، وهي في طريقها إلى المنفى بعد حربها مع الكاوارافاس، كما ورد في المهابهاراتا، أطول الملحم الإنسانية المكتوبة، حيث تتجاوز 74 ألف بيت شعري ومليوناً و800 كلمة، ويعود تاريخ نصوصها الأولى إلى المرحلة الفيديا في القرن الثامن قبل الميلاد، فيما أخذت شكلها النهائي في العصر الغوبتي في القرن الرابع الميلادي.

وتدور أحداث الملحمة حول صراع مريض ومعارك دامية بين فرعين من نسل بهارتا الملك الهندي العظيم؛ هما الكاوارافاس والباندا فاس، حيث تولى الحكم دريتاراشترا، الأب الأول لفرع الكاوارافاس، ولكنه أصيب في فترة من حياته بالمعنى ليتنازل عن العرش لأخيه بادو، الذي جاء من نسله جماعة الباندا فاس، لكنه سيصبح لاحقاً راهبا زاهدا ليعود الحكم لأخيه، ليحدث الصراع بين ابناهما حول من يخلف في الحكم، فينتهي الأمر بنفي أبناء بادو الأخوين من المملكة، ما يضطرهما إلى اللجوء إلى مملكة مجاورة.

**قطع الرؤوس ولا قطع الأشجار**

منذ العام 1943 تعتبر الغاف الشجرة الوطنية لدى أهل ولاية راجستان الهندية الذين يطلقون



غذاء وظلال وبركة



عناق الشجرة تكتيك حركة تشيكيو

أشجار الغاف في 12 منطقة جافة في ولاية راجستان قد انخفض بأقل من 35 بالمائة في الهكتار، وذلك بسبب عوامل مثل انخفاض مستوى المياه الجوفية والأمراض الفطرية والقطع العشوائي. هذا الأمر يسبب ألماً وحزناً في حياة شعب ولاية راجستان، حيث تم اختيارها الشجرة الرمز للولاية في العام 1953 لقيادتها من قبل الكثيرين، فقبل القيام بأي عمل جديد مهم، يؤدي السكان المحليون طقوسهم الدينية تحت تلك الشجرة.

وهناك أهمية اقتصادية وبيئية كبيرة أيضاً للشجرة، حيث تلعب دوراً حيوياً في الحفاظ على النظام البيئي لمنطقة نار الكتيبة بسبب قدرتها على البقاء في مثل هذه الظروف الصعبة والطرق المختلفة التي يمكن استخدامها من قبل المزارعين. وتصرف النضر عن كونها مصدر الحطب والأعلاف، فإن شجرة الغاف تساعد أيضاً في الحفاظ على القيمة الغذائية للتربة والظلال لعابري الصحراء وضمان الحصول على إنتاج جيد.

وتسمى ثمرتها سانجري، كما يطلقون عليها اسم الفاصوليا الخضراء. ويقولون إنه إذا لم يتم كسر هذه الفاصوليا الخام، فإنها تبعد لذبذبة للغاية بعد الطهي، وتستمر الحبوب الناضجة المجففة لفترة طويلة بعد أن تتساقط على الأرض تلقائياً بفعل الرياح، ويطلق عليها أهل راجستان اسم خوفا، وتعتبر قشور جذع الشجرة طعاماً غنياً ولذيذاً، وخشبها قويا ومؤثراً في حياة المزارعين لصناعة الأثاث والأدوات الفلاحية التقليدية.

أما لحاء الشجرة، فله خصوصيات طبية لعدد من الأمراض، إذ يفيد في تهدئة آلام الصدر وحرارة المعدة، أما الأزهار، فعادة ما تكون غذاء للنحل لينتج أرفع أنواع العسل، وعندما يتم تناولها مع السكر فإنها تمنع الإجهاد لدى النساء الحوامل.

موتاهم حتى لا يضطروا إلى قطع الأشجار لحرقهم.

وفي المناطق البرية الخاضعة للبيشنو تحافظ الطبيعة على بكارتها، وتعيش الحيوانات وخاصة الطيأ في الغابات دون أن تخاف البشر، بل أصبحت هاته الحيوانات تتغذى على أيدي القرويين في صورة مهذلة.

ويقول السكان المحليون لقد تم إنقاذ شجرة من فاس من كان ينوي اقتلاعها على حساب رأس من ضحى في سبيلها. وتحولت تضحيات أمريتا وبناتها وأهل قريتها قبل حوالي 290 عاماً، إلى الدافع الرئيسي وراء ظهور حركة تشيكيو التي تسمى أيضاً تشيكيو أندولن، وهي حركة اجتماعية وبيئية غير عنيفة يديرها القرويون في أرياف الهند، تتكون خاصة من النساء منذ السبعينات من القرن الماضي بهدف حماية الأشجار والغابات.

وقد نشأت الحركة في منطقة جبال الهيمالايا في ولاية أوتار براديش (في وقت لاحق أوتارانتشال) في 26 مارس 1974 وانتشرت بسرعة في جميع أنحاء جبال الهيمالايا الهندية.

وتعني كلمة تشيكيو الهندية "العناق" أو "التشبث" وتعكس تكتيك المظاهرات الأساسية المتمثل في احتضان الأشجار لإعاقة الحطابين. ويعتبر خبير البيئة سوندرال باهوغونا (92 عاماً) الأب الروحي لحركة تشيكيو التي سرعان ما تنبأها ودافع عنها بكل قوة، فهو صاحب تاريخ طويل في اتخاذ المواقف الوطنية والإنسانية، بدأ الأنشطة الاجتماعية في سن الثالثة عشرة.

وكان ناشطاً في حزب المؤتمر بعد أن ساهم بدور مهم في تعبئة الناس ضد الاستعمار البريطاني قبل عام 1947، كما تبني مبادئ المهاتما غاندي في حياته وتزوج من حبيبته فيملا بعد أن اشترط عليها أن يعيشا بين سكان الريف، ثم تجول في غابات وتلال الهيمالايا التي تغطي أكثر من 4700 كيلومتر سيرا على الأقدام، ولاحظ الأضرار التي لحقتها مشاريع التنمية الضخمة بالنظام البيئي الهش في تلك المناطق والتدهور اللاحق بالحياة الاجتماعية في القرى.

لقد ألهمت حركة تشيكيو في ما بعد حركة أيبكو في ولاية كارناتاكا، وكانت إحدى مساهمات سوندرال باهوغونا البارزة في هذه القضية، ابتكاره شعار الحركة وهو "البيئة هي اقتصاد دائم"، ومساعدته في تعزيز الحركة من خلال مسيرة عبر الهيمالايا بطول 5000 كيلومتر تم القيام بها من 1981 إلى 1983، حيث سافر من قرية إلى أخرى، وجمع الدعم للحركة، كما التقى في العام 1980 مع رئيسة الوزراء آنذاك أنديرا غاندي

هناك قانون يقضي باعتماد أوراق شجرة الغاف في عبادة الأم دورغا، وتعني بالسنسكريتية التي لا تقهر أو التي لا يمكن الوصول إليها، وهي الآلهة العليا في الهندوسية

